النص2: الأنتروبولوجيا الاجتماعية وفهم الإنسان

في كل مجتمع مهما كان بسيطا، نجد نمطا من الحياة العائلية، واعترافا بروابط القربى، وسستاما اقتصاديا، وسستاما سياسيا، ووضعا مجتمعيا، وديانة، وأساليب للوئام المجتمعي، وعقوبات جنائية، وأسباب تسلية منظمة، وهلم جرا، إلى جانب ثقافة مادية، ومجموعة من المعارف حول الطبيعة والتقنيات، وجملة من التقاليد. عندما نحاول أن نفهم السمات المشتركة لأية مؤسسة من مؤسسات المجتمعات البشرية عامة، وأن نفهم أيضا مختلف الأشكال التي تتخذها، ومختلف الأدوار التي تلعبها في مجتمعات مختلفة، ينبغي أن نسلم بأن دراسة المجتمعات القليلة التعقيد تساعدنا مساعدة كبيرة لا تقل عن تلك التي تقدمها لنا دراسة المجتمعات الشديدة التعقيد. إن ما نكشفه عند دراسة مجتمع بدائي من حيث طبيعة إحدى مؤسساته، يجعل هذه المؤسسات أقرب إلى أفهامنا ومداركنا، سواء كانت موجودة في مجتمعنا أو في أي مجتمع آخر.

بل إننا نكون أقدر بكثير على فهم الإسلام، مثلا، أو المسيحية أو الهندوسية، إذا كنا نعلم أن بعض سمات الأديان عامة وشاملة. كل الديانات تنطوي على سمات مشتركة. بما فيها ديانات الشعوب البدائية، بعض هذه السمات مخصوصة ببعض الأديان، وبعضها خاص بديانة واحدة. وأنا أتبع نفس النهج بالنسبة لما يتعلق بالإناسة. فهي تساعدنا انطلاقا من زاوية واحدة، على رؤية البشرية بكليتها. وما هي إلا أن نعتاد على النظر إلى الثقافات والمجتمعات البشرية "إناسيا" حتى يصير بوسعنا أن نتحرك بسهولة من الخاص إلى العام ومن العام إلى الخاص. فإذا تكلمنا عن العائلة فإننا لا تعني العائلة في أوربا الغربية المعاصرة فقط، بل نعني وضعا عاما شاملا لا تشكل العائلة الأوربية إلا عينة منه، رغم أنها تمتاز بعدد كبير من الميزات الخاصة. وعندما نتكلم عن الدين، لا نعني الدين المسيحي وحده، بل نعني طائفة من العبادات القائمة والعبادات المندثرة، في أنحاء العالم بأسره. والمرء لا يتوصل إلى فهم ثقافته ومجتمعه حق الفهم إلا إذا فهم الثقافات والمجتمعات الأخرى، عندئذ يفهمها قياسا على مجمل التجارب البشرية.

اسمحوا لي أن أذكركم بمحاضرتي الأخيرة. لقد قلت إن الدكتورة ميد قد فهمت في بلاد الساموا مشكلات المراهقين الأمريكيين، وإن مالينوفسكي عندما درس تبادل الأشياء الطقسية عند التروبرياندين، قد ساهم في توضيح بعض مشكلات الدوافع المحركة للصناعة البريطانية، وأعتقد من جهتي أنني استطعت أن أفهم روسيا السوفياتية بعض الفهم بدراسة العين عند معشر الأزندي.

وفي الختام أضيف أنني على اقتناع بأن الإناسة المجمعية تساعدنا، أنى كنا وأين كنا، على أن نفهم

بصورة أفضل هذا المخلوق العجيب الذي هو الكائن البشري.

أ. إيفنز–برتشارد

"الأناسة المجتمعية.

ديانة البدائيين في نظريات الأناسين"

ترجمة حسن قبيسي، دار الحداثة،

ط1، 1986، ص 145- 147.

أ–التعريف يصاحب النص:

إدوارد إيفان إيفانز–بريتشارد (1902- 1973) من أصل غالي، درس التاريخ المعاصر في أوكسفورد، ثم الأنتروبولوجيا في المدرسة العليا للدراسات الاقتصادية في لندن حيث حصل على الدكتوراه عام 1927.

تلميذ ثم مساعد رب. ز. سيليغمان، باشر تحت إشرافه أولى مهماته في السودان الأنجلو- مصري بعد أن تلقى دروسا لدى مالينوفسكي الذي بقي دائما متحفظا حياله وراد كليف براون وقد جعله هذا الأخير يكتشف دوركايم وعلم الاجتماع الفرنسي. لكن إيفانز- بريتشارد استبعد باكرا من مفاهيمه فكرة أنتروبولوجيا مصممة كعلم طبيعي للمجتمعات. تابع أخيرا دروس. ج. إليوت سميت و ج. بيري في كلية الأنتروبولوجيا في يونيفر سيتي كولدج بلندن حيث التقى بـ أ.م. هوكارت زميل الدراسة القديم في أوكسفورد.

من العام 1926 وحتى 1940 قام إفانز- بريتشارد بالعديد من المهمات في السودان، ولم يقطع إقامته الطويلة في الميدان سوى لفترات تعليم قصيرة في المدرسة العليا للدراسات الاقتصادية في لندن. وفي جامعة فؤاد الأول في القاهرة، حيث تبوأ كرسي علم الاجتماع (1932- 1934) ثم في أوكسفورد حيث سيصبح أكثر قربا من معهد الأنتروبولوجيا الاجتماعية الذي أسسه راد كليف براون. عام 1940 استخدمت الحكومة البريطانية خبرات إيفانز- بريتشارد لتنظيم تمرد الأنواك ضد الإيطاليين الذين يحتلون أثيوبيا، قبل إرساله إلى سوريا لدى طائفة العلويين. من العام 1942 حتى 1944، وكمستشار للإدارة العسكرية في ليبيا، درس إيفانز- بريتشارد طائفة السنوسية المسلمة، ويشهد الكتاب الذي نشره عنها (1949) على الاهتمامات التاريخية التي لا يمكن فصلها في عين الكاتب عن أي أنتروبولوجيا.

بعد انتقال قصير إلى كمبريدج بعد عام 1945 خلف إيفانز- بريتشارد في السنة اللاحقة راد

كليف براون على كرسي علم الاجتماع في أوكسفورد الذي سيحتله حتى إحالته إلى التقاعد، توفي عام 1973، تاركا مراجع بحث بأكثر من أربعمائة عنوان.

في الأساس بقي اسم إيفانز- بريتشارد مرتبطا بإتنولوجيا شعوب النوير الذين أقام لديهم عام 1930 ليس فقط كغريب بل كعدو بعد أن دمرت بلدهم حملات قمع عسكرية، والذين لم يحصل أبدا منهم على الثقة التي حصل عليها من شعوب الأزاندي، وقد خصص لهم ثلاثة كتب ومائة مقالة. أول هذه الكتب "النوير" الذي أصبح أثرا نموذجيا للأنتروبولوجيا لتحليله النظام الانقسامي ولتأثيره على دراسة الأنظمة السياسية الإفريقية. أما الثاني (1915) . فهو غني بمواد عن تكوين الجماعات المحلية، وهو مصمم بشكل مصطلحات عن شبكات القرابة والزواج. الكتاب الثالث (1956) يتمركز على ديانة النوير سيلقى الكثير من التقدير إلى أن يعاد النظر به على ضوء الدراسات عن شعوب الأزاندي.

في سنة 1940 وهي السنة التي صدر فيها كتاب شعب النوير نشر إيفانز- بريتشارد تحليلا للمؤسسات السياسية لدى الأنواك وأشرف بالاشتراك مع م. فورتس على نشر الكتاب الجماعي "الأنظمة السياسية الإفريقية" الذي وضع أسس مشروع مقارن شكلت الدراسات عن شعوب النوير نموذجا له[1].

ب-فهم النص

1-تفكيك النص

-في كل مجتمع سواء كان بسيطا أو معقدا نجد نمط من الحياة العائلية وأنظمة مختلفة قرابية واقتصادية وسياسية، كما نجد ديانة وأساليب للوئام المجتمعي وعقوبات جنائية وأساليب تسلية منظمة أو بكلمة واحدة نجد ثقافة مادية ولا مادية.

-محاولة فهم السمات المشتركة لأي مؤسسة اجتماعية بشرية وأشكالها وأدوارها في مجتمعات مختلفة تتطلب التسليم بفكرة أن المجتمعات البسيطة تساعدنا مساعدة كبيرة لا تقل عن تلك التي تقدمها لنا دراسة المجتمعات المعقدة جدًا.

-ما نكتشفه عن مجتمع بدائي من حيث طبيعة مؤسساته يجعلنا نفهم أحسن هذه المؤسسات في مجتمعات

---

[1]- بيار بونت وميشال إيزار، **معجم الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا**، ترجمة وإشراف مصباح الصمد، المعهد العالي العربي للترجمة، الجزائر والمؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،2006، ص 269-270.

معقدة كالمجتمعات الغربية.

-نستطيع فهم الإسلام أو أي ديانة أخرى إذا كنا نعلم السمات العامة لكل الأديان بما فيها الأديان البدائية.

-الأنتروبولوجيا تتبع نفس النهج فهي تنطلق من الخاص إلى العام ومن العام إلى الخاص. مثال ذلك العائلة. فلا يتعلق الأمر بعائلة خاصة بأوربا بل بالعائلة في كل زمان ومكان وليست العائلة الأوربية سوى نموذج خاص وإن كانت تتميز بمجموعة خصائص خاصة بها. مثال الدين: لا يتعلق الأمر بالدين المسيحي بل بطائفة من العبادات القائمة والعبادات المندثرة في أي مكان من العالم.

وإذن ففهم ثقافة ما لا يتأتى إلا بفهم الثقافات الأخرى. والدليل على ذلك أن بعض الأنتروبولوجيين توصلوا إلى فهم ثقافات مجتمعات غربية أو مشكلات في هذه المجتمعات عن طريق فهم ثقافات مجتمعات بدائية. المثال الأول هو لـ مارغريت ميد التي فهمت مشكلات المراهقين الأمريكيين بفهمها لثقافة بلاد الساموا المتعلقة بتربية الأطفال. حيث وحدت أن الشاب في بلاد الساموا لا يتعرض للضغوط التي يتعرض لها الشاب الأمريكي ولذلك فهو لا يعيش أزمة المراهقة بالحدة التي يعيشها الشاب الأمريكي. والمثال الثاني هو لمالينوفسكي الذي بفضل دراسة تبادل الأشياء الطقسية في مجتمعات التروبرياند وضح بعض مشكلات الدوافع المحركة للصناعة البريطانية. والمثال الثالث يتعلق بإيفانز- بريتشارد الذي استطاع فهم روسيا السوفياتية بواسطة دراسة العين عند الأزندي.

-الأنتروبولوجيا الاجتماعية تساعد على فهم الإنسان في أي زمان وأي مكان.

2-الكلمات المفتاحية: الأناسة المجتمعية - الكائن البشري.

3-الفكرة العامة: الهدف من الأنتروبولوجيا الاجتماعية هو فهم الإنسان في أي مكان وأي زمان.

4-**الإشكال**: ما هو الهدف من الأنتروبولوجيا الاجتماعية؟

ج-المقالة

1)-لقد ظهرت الأنتروبولوجيا كعلم أكاديمي قائم بذاته خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في الفترة نفسها التي ظهر فيها علم الاجتماع وعلم النفس. وإذا كان الأول يدرس الإنسان كفرد في المجتمع، ويدرسه الثاني ككائن فرد يزخر بمجموعة من الانفعالات والدوافع، وإذن كلاهما يهدفان إلى فهم الإنسان

إما ككائن اجتماعي أو كشخص فإننا نتساءل عن موضوع وغاية الأنتروبولوجيا التي تطرح نفسها كعلم متميز من حيث الموضوع والمنهج عن ذينك العلمين. فما هو الهدف منها يا ترى؟

2)-الأنتروبولوجيا (الاجتماعية) هدفها المساعدة على فهم الإنسان في أي مكان وأي زمان. والعبارة الدالة على هذه الفكرة هي قول الكاتب: "وفي الختام أضيف أثني على اقتناع بأن الإناسة المجتمعية تساعدنا أنى كنا وأين كنا، على أن نفهم بصورة أفضل هذا المخلوق العجيب الذي هو الكائن البشري"

3)-للبرهنة على هذه الفكرة انطلق إيفانز-بريتشارد من مسلمة أساسية هي أن في كل مجتمع سواء كان بسيطا أو معقدا نجد نمطا من الحياة العائلية وأنظمة اجتماعية مختلفة قرابية واقتصادية وسياسية ودينية، كما نجد أساليب للوئام المجتمعي وعقوبات جنائية وأساليب تسلية أي بكلمة واحدة نجد ثقافة. هكذا فإن كل المجتمعات تتشابه فيما بينها.

ويترتب عن هذه المسلمة أن محاولة فهم السمات المشتركة لأي مؤسسة اجتماعية بشرية وأشكالها وأدوارها في مجتمعات مختلفة تتطلب التسليم بفكرة أن المجتمعات البسيطة تساعدنا مساعدة كبيرة لا تقل عن تلك التي تقدمها لنا دراسة المجتمعات المعقدة جدًا. فالبسيط يمكن من فهم المعقد. وهكذا فالمجتمعات البدائية البسيطة هي التي تمكننا من أن نفهم مؤسسات مجتمعات معقدة بشكل أحسن. مثال ذلك أننا نستطيع فهم الإسلام أو المسيحية أو الهندوسية كديانات معقدة إذا كنا نعلم السمات العامة لكل الأديان بما فيها الأديان البدائية.

والأنتروبولوجيا تتبع نفس هذا النهج فهي تنطلق من الخاص إلى العام ومن العام إلى الخاص، أي أنها تتجه صعودًا عن طريق الاستقراء من الخاص إلى العام أو من الجزء إلى الكل، كما تتجه في الاتجاه المعاكس فتنزل استنتاجا من العام إلى الخاص أو من الكل إلى الجزء فنحن إزاء عملتين أساسيتين هما الاستقراء والاستنتاج، وهاتان العمليتان تميزان التفكير الرياضي. فنحن ننطلق من أي مثلث لنحكم على كل المثلثات بأن مجموع زواياها يساوي 180، ثم نطبق هذا الحكم على أي مثلث. والأمثلة التي يقدمها الكاتب تتعلق أولا بالعائلة، فالأمر لا يتعلق بعائلة خاصة بأوربا بل بالعائلة في كل زمان ومكان وليست العائلة الأوربية سوى نموذج خاص وإن كانت تتميز بمجموعة خصائص خاصة بها. ثم مثال الدين. فلا يتعلق الأمر بالدين المسيحي أو الإسلامي بل جملة العبادات القائمة والعبادات المندثرة في أي مكان من العالم. وإذن فهم ثقافة ما لا يتأتى إلا بفهم الثقافات الأخرى. هكذا فقد استطاع الأنتروبولوجيون أن يفهموا المجتمعات

الغربية وبعض مشكلاتها عن طريق دراستهم لمجتمعات بدائية. فمارغريت ميد فهمت في بلاد الساموا مشكلات المراهقين الأمريكيين الذين يعيشون أزمة مراهقة تتجلى في بعض الصعوبات النفسية التي يعانون منها بخلاف الشباب في مجتمع الساموا فهم لا يعانون أية مشكلة في سن المراهقة لأن التربية التي يتلقونها في هذا المجتمع تتميز باللين. ومالينوفسكي بفضل دراسته لتبادل الأشياء الطقسية (الكولا) في مجتمعات التروبرياند وضح بعض مشكلات الدوافع المحركة للصناعة البريطانية. والكاتب نفسه استطاع أن بفهم روسيا السوفياتية بواسطة دراسة العين عن الأزندي.

وهكذا يمكن وضع استدلال الكاتب في مقدمتين ونتيجة:

-كل المجتمعات البشرية متشابهة

-التشابه يسمح بالانتقال من الخاص إلى العام ومن العام إلى الخاص.

وإذن يمكن فهم الكائن البشري في أي زمان وأي مكان.

4)-ولكن لنتساءل هل استطاعت الأنتروبولوجيا أن تفهم الإنسان حقا؟

في الواقع إن الأنتروبولوجيا تطرح نفسها كعلم للإنسان الذي هو موضوع لعلوم اجتماعية أخرى ولكنها تحاول أن تحيط بجميع أبعاده ولذلك تتعدد فروعها وميادينها. فهناك الأنتروبولوجيا الفيزيقية التي تتناول الجانب الجسدي والتشريحي والتطوري للإنسان، وهناك الأنتروبولوجيا الاجتماعية التي تهتم بدراسة النظم الاجتماعية. وهناك الفرع الثالث الأنتروبولوجيا الثقافية التي تدرس الثقافة في علاقتها بالشخصية. أما الميادين فهي متعددة ومتنوعة تتناول الاقتصاد والسياسة واللعب والفن والفضاء والدين وغير ذلك. ولذلك فإن المشروع الأنتروبولوجي يقوم على الاعتقاد بأنه الأقدر على فهم الإنسان. والحق يقال إن الأنتروبولوجيا ساهمت فعلا في إلقاء الضوء على الكثير من المشكلات التي تتعلق بأوجه حياة الإنسان، ولكن هناك من يرى بأنه لا الأنتروبولوجيا ولا أي علم آخر استطاع أن يفهم الكائن البشري. هذا الكائن العجيب الذي يظل مجهولا، يقول ألكسيس كاريل الطبيب الفرنسي الحائز على جائزة نوبل: "هناك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة. فعلوم الفلك والميكانيكا والطبيعة تقوم على آراء يمكن التعبير عنها بسداد وفصاحة باللغة الحسابية. وقد أنشأت هذه العلوم عالما متناسقا كتناسق آثار اليونان القديمة. إنها تنسج حول هذا العالم نسيجا رائعا من الإحصاءات والنظريات. إنها تبحث عن الحقيقة فيما وراء مملكة تمتد من الفكر الشائع إلى المعنويات غير المنطوقة التي تتكون من المعادلات الجبرية والرموز فقط (...).

ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة، والإنسان بصفة خاصة لم يصب مثل هذا التقدم. إنه لا يزال في المرحلة الوصفية. فالإنسان كل لا يتجزأ وفي غاية التعقيد، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له، وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه، أو في أجزائه في وقت واحد (...) ولكي نحلل أنفسنا فإننا مضطرون إلى الاستعانة بفنون مختلفة، وإلى استخدام علوم عديدة، ومن الطبيعي أن تصل كل هذه العلوم إلى رأي مختلف في غايتها المشتركة. فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط. إننا لا نفهم الإنسان ككل (...) إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا".[2]

وهكذا فإن طبيعة العلوم الإنسانية التي هي وصفية أو كيفية بخلاف العلوم الطبيعية الكمية، وتجزيء الإنسان يعدان سببين يحولان دون فهم الإنسان ككل. وارتكانا إلى هذا فإن الأنتروبولوجيا تستخدم الإحصائيات بشكل نسبي ومحدود كما أنها علم من العلوم الإنسانية تتناول نواحي من الإنسان.

من جهة أخرى ثمة معوقات أخرى تحول دون التوصل إلى معرفة علمية موضوعية بالإنسان، يقول جان بياجيه: "إن عملية إزاحة التمركز الذاتي التي هي ضرورية لتحقيق الموضوعية، تصير شديدة الصعوبة عندما يتعلق الأمر بموضوع متكون من ذوات، وذلك لسببين قاطعين إلى حد ما: أولهما أن الحد الفاصل بين الذات المتمركزة حول نفسها وبين الذات العارضة، يكون أقل وضوحا، كلما زادت الملاحظة توغلا في ظواهر يجب على الملاحظ أن يدرسها من الخارج"[3] والسبب الثاني يتمثل في رأيه في فشل عملية فهم الواقع الإنساني أي فشل الاعتقاد في إدراكه حدسا أو بشكل مباشر وذلك بسبب اندراج سلوكيات الإنسان ضمن ثقافات متعددة، وكذا قدرته على الترميز بشتى أنواعه (التلفظ، الكتابة، الرسم،...). وينتهي جانيه إلى التأكيد بأن الموضوعية في العلوم الإنسانية تظل محدودة على الدوام لأن الصعوبات المذكورة لا يمكن التخلص منها.

وهكذا فإن المعرفة التي تقدمها الأنتروبولوجيا حسب جانيه لا تتمتع بقدر كاف من الموضوعية لفهم الإنسان، إذا عرفنا أن الباحث في هذا العلم يتناول ثقافة أخرى وينتمي هو ذاته إلى ثقافة معينة ولهذا يكون التمركز الذاتي شديدا.

---

[2]- ألكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**، ترجمة شفيق أسعد فريد، دار المعارف، بيروت لبنان، 2003، ص 15-17.

[3]- Jean Piaget, **Epistémologie des sciences humaines**, Gallimard, Paris, 1970, p 47.

ومن ناحية أخرى هناك من يرى أن إمكان التعميم ونجاحه في العلوم الطبيعية راجعان إلى اطراد الحوادث الطبيعية بوجه عام، أي إلى ما نشاهده وربما يحسن أن نقول ما نفترضه من أنه في الظروف المتماثلة تحدث أمور متماثلة. وهذا المبدأ الذي يعتقد بانطباقه في كل زمان ومكان يقال إنه أساس المنهج الفيزيقي. ولكن هذا المبدأ ليس بالضرورة ذا نفع في علم الاجتماع أو العلوم الاجتماعية. إذ أن الظروف المتماثلة لا تنشأ إلا في الفترة التاريخية الواحدة. وهي لا تظل على حالها قط فترة بعد أخرى. ومن ثم لا يوجد في المجتمع اطراد طويل الأمد يصلح أن يكون أساسا للتعميمات البعيدة المدى. إن من يفضل هذه الحدود ويحاول تعميم الاطرادات الاجتماعية، فهو يفترض دوام هذه الاطرادات. وهكذا ينشأ عن الرأي المنهجي الساذج القائل بأن من المستطاع للعلوم الاجتماعية أن تتبع طريقة التعميم المستخدمة في العلوم الطبيعية، ينشأ عنه نظرية كاذبة ومضللة إلى حد كبير. وذلك لأنها نظرية تنكر على المجتمع أن يتطور أو يطرأ عليه تغير ذو شأن، أو هي تنكر أن يكون للتطورات الاجتماعية إن وجدت، أي أثر في الأمور المنتظمة الأساسية في الحياة الاجتماعية.

وهكذا فإن التعميم الذي يقول به إيفانز-بريتشارد أي الانتقال من العام إلى الخاص والذي تقوم عليه الدراسة الأنتروبولوجية غير ممكن. كما أن الاستقراء أي الانتقال من الخاص إلى العام غير ممكن لأن الواقع الاجتماعي والإنساني مختلف ومعقد ولا يسمح بالوصول إلى قوانين عامة.

وأخيرا إن القول بأن المجتمعات البدائية بسيطة ربما كان فيه مجانبة للواقع فالبساطة التي تبدو لنا في هذه المجتمعات ربما كانت مضللة لأن هذه الأخيرة قد تكون معقدة جدا في ميادين معينة.

5)-وهكذا فإن الزعم بأن الأنتروبولوجيا يمكنها أن تفهم الإنسان يبقى محدودًا بصعوبات وعوائق إبستمولوجية تميز العلوم الاجتماعية جميعها، مما يسمح لنا بالقول إن الأنتروبولوجيا تفهم الإنسان بشكل جزئي، أي تفهم هذا الإنسان في هذا المجتمع أو في هذه الثقافة بالذات أي الإنسان في هذا الزمان وهذا المكان المعينين.